الأزهر والحياة الفكرية
في العصر الفاطمي

للاستاذ محمد عبد الله عنان

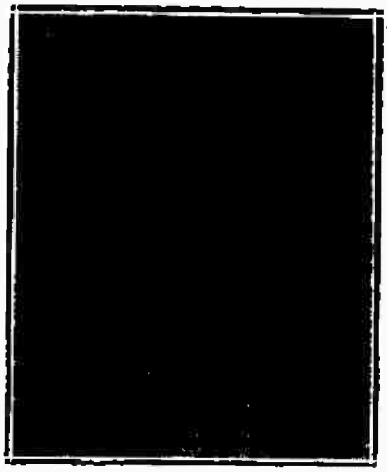

عرضت لنا من قبل فرصة للتعريف بنشأة الأزهر الجامعية، وكيف أنه أنشىء في البداية ليكون مسجداً رسمياً للدولة الفاطمية، ثم نشأت صفته الجامعية في ظروف عرضية، ولم تلبث أن استقرت بعد ذلك وتأثلت؛ وذكرنا ما كان للوزير ابن كلس من كبير أثر في اسباغ هذه الصفة العلمية الجليلة على الأزهر، وكيف أنه يعتبر منشئ الجامعة الأزهرية في معنى من المعاني

والآن نذكر طرفا من الآثار الفكرية التي ترتبت على قيام هذه الجامعة الاسلامية الكبرى في عصرها الأول، أعني في العصر الفاطمي، ونذكر أيضاً بعض أعلام التفكير في هذا العصر ممن تولوا التدريس في هذا المعهد الجليل أو تخرجوا فيه أو اتصلوا به وبحلقاته اتصالاً كان له أثر في تكوينهم الفكري والعلمي

لم تبلغ العلوم والآداب في ظل الدولة الفاطمية من التقدم والازدهار ما كان خليقا أن تبلغه في ظل هذه الدولة القوية الباذخة؛ ذلك أن الدولة الفاطمية كانت لظروفها الدينية والسياسية ترمي الى الانشاء في كل شيء، ولم ترد أن تقوم على تراث الماضي أو أن تستأنف السير به؛ ولم يمد لها في عهد الانشاء الفتي، فلم يأت منتصف القرن الخامس حتى سرت اليها عوامل الانحلال والوهن

وقد كان هذا شأن الحركة الفكرية، فانها لم تلبث طويلاً في قوتها وازدهارها. وكان الأزهر، وهو يومئذ الى جانب دار الحكمة والمسجد الجامع، من صروح الحركة الفكرية، يتبع مصاير هذه الحركة من قوة وضعف، فلم يبلغ في هذا العصر — عصر الانشاء والنمو — ما بلغه في العصور التالية من التقدم والأخذ بزمام الحركة الفكرية؛ ومن ثم فاننا لا نستطيع أن نحصي في هذه المرحلة من تاريخ الجامع الأزهر كثيراً من الأعلام الذين تخرجوا في حلقاته أو درسوا فيها. والواقع أنه من الصعب أن نعين بالتحقيق من تخرج في الأزهر من أعلام التفكير والأدب في هذا العصر، وإن كنا نستطيع أن نعين بعض الأساتذة الذين تولوا التدريس في حلقاته؛ ذلك أن الأزهر لم يكن ينفرد يومئذ بتنظيم الدراسة العالية، بل كان إلى جانبه دار الحكمة تنافسه وتتفوق عليه أحياناً، والمسجد الجامع يحتفظ دائماً بحلقاته القديمة؛ ومن المرجح أن معظم العلماء والأدباء الذين ظهروا في هذا العصر كانوا ينتفعون بالدرس في المعاهد الثلاثة، ومن المرجح أيضاً أن الأزهر كان له في تخريج أولئك العلماء والأدباء أوفر نصيب، لأن دار الحكمة لم تتمتع دائماً بكثير من الثبات والاستقرار، وقد أغلقت فيما بعد؛ ولم يكن المسجد الجامع معهداً منتظماً للدرس، وكان الأزهر أكثر المعاهد الثلاثة انتظاماً واستقرارا

كان في مقدمة الأساتذة الذين تولوا التدريس والاقراء بالأزهر منذ إنشائه بنو النعمان قضاة مصر؛ فكان القاضي أبو الحسن علي بن النعمان أول من درس بالأزهر، فعقد أول حلقاته في صفر سنة ٣٦٥ هـ وقرأ فيها مختصر أبيه في فقه آل البيت، وكان فوق تضلعه في فقه آل البيت أديباً شاعراً، وتوفي سنة ٣٧٤ هـ؛ ودرس بالأزهر أيضاً أخوه القاضي محمد بن النعمان المتوفى سنة ٣٨٩ هـ، ثم ولده الحسين بن النعمان قاضي الحاكم بأمر الله[1]؛ ومن المرجح أن فقيه مصر ومؤرخها الكبير الحسن بن زولاق (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ) كان بين الذين تولوا الدرس بالأزهر يومئذ، فقد كان صديق المعز لدين الله ومؤرخ سيرته، ثم صديق ولده العزيز، ومن المعقول أن يقع الاختيار عليه للتدريس بالمعهد الفاطمي الجديد

ويجب ألا ننسى أن الوزير ابن كلس نفسه كان في مقدمة العلماء الذين تولوا التدريس في الأزهر. وقد رأينا في بحثنا السابق كيف كان هذا الوزير العلامة أيام العزيز بالله يعقد حلقاته الدراسية

(١) ابن خلكان — ج ٣ ص ٢١٩ — ٢٢٣، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٨ — وذيل القضاة (ملحق كتاب الكندي) ص ٥٨٩ و ٦١٠ و ٦١١

حياناً بالأزهر وأحياناً بداره ، ويقرأ فيها محاضراته فى الفقه شيى ولا سيما رسالته الشهيرة المعروفة « بالرسالة الوزيرية » وقد انت من أقدم كتب الدراسة التى درست بالأزهر

ونستطيع أن نذكر من أعلام التفكير والأدب فى هذا العصر دة ، وهم بلا ريب ممن كان للأزهر فى تكوينهم العلمى أثر كبير ؛ نهم المسبحى الكاتب والمؤرخ الأشهر ، وهو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحرانى ، ولد بمصر سنة ٣٦٦ هـ وتوفى سنة ٤٢٠ ؛ وكان من أقطاب الأمراء ورجال الدولة الفاطمية ؛ تولى الوزارة للحاكم بأمر الله ونال حظوة لديه ؛ وأخذ بقسط وافر فى مختلف علوم عصره ، وشغف بتدوين التاريخ ، وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » وهو تاريخ مصر ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء وما بها من العجائب والأبنية ، وذكر نيلها وخواصها ومجتمعاتها حتى فاتحة القرن الخامس الهجرى . ولم يصلنا هذا الأثر الضخم الذى يلقى بلا ريب أعظم الضياء على تاريخ الدولة الفاطمية فى عصرها الأول ، ولكن الشذور التى وصلتنا منه على يد المقريزى وغيره من المؤرخين المتأخرين ، تنوه بقيمة هذا الأثر ونفاسته ؛ وكتب المسبحى كتباً أخرى فى التاريخ والأدب والفلك ولكنا لم نتلق شيئاً منها[1]

ومنهم ، القضاعى الفقيه والمحدث والمؤرخ ؛ وهو أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى ؛ ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع ، وتوفى بها سنة ٤٥٤ هـ : كان من أقطاب الحديث والفقه الشافعى ؛ تولى القضاء وغيره من مهام الدولة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، وأوفده المستنصر سفيراً إلى تيودورا امبراطورة قسطنطينية سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ليحاول عقد الصلح بينها وبين مصر ، وكتب عدة مصنفات فى الحديث والفقه والتاريخ منها « الشهاب » و « مسند الصحاب » وهما فى الحديث وكتاب « مناقب الامام الشافعى » ، و « أنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء » ، و « عيون المعارف » وهما مختصران فى التاريخ ، وكتاب « المختار فى ذكر الخطط والآثار » وهو تاريخ مصر والقاهرة

(١) راجع فى ترجمة المسبحى وذكر مؤلفاته ابن خلكان — ج ١ ص ٦٥٣ — وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥

حتى عصره[1]

ومنهم الحوفى النحوى اللغوى ، وهو أبو الحسن على بن ابراهيم ابن سعيد كان من أئمة اللغة فى عصره ، واشتغل أعواماً طويلة بالتدريس فى مصر والقاهرة ، وألف كتباً كثيرة فى النحو والأدب منها كتاب « إعراب القرآن » وكانت وفاته سنة ٤٣٠ هـ

ومنهم أبو العباس أحمد بن على بن هاشم المصرى ، وقد كان من كبار المحدثين والمقرئين ، واشتهر حيناً بتدريس علم القراءات وتوفى سنة ٤٤٥ هـ

ومنهم ابن بابشاذ النحوى الشهير ، وهو أبو الحسن طاهر ابن أحمد المصرى المعروف بابن بابشاذ ، كان إمام عصره فى اللغة والنحو ، وألف فيهما عدة تصانيف ضخمة ، واشتغل حيناً بديوان الانشاء فى عهد المستنصر بالله ، وتوفى سنة ٤٦٩ هـ

ومنهم أبو عبد الله محمد بن بركات النحوى ، تلميذ القضاعى ، كان أيضاً من أئمة اللغة والنحو ، وتوفى سنة ٥٢٠ هـ

ومنهم الفقيه العلامة الحسن بن الخطير الفارسى ، كان من أقطاب الفقه الحنفى والتفسير ، وكان أيضاً عارفاً بالرياضة والطب وعلوم اللغة والتاريخ ، وله عدة مصنفات فى التفسير والفقه ، واشتغل زمناً طويلاً بالتدريس بالأزهر ، وتوفى سنة ٥٩٨ هـ

* * *

هذا وأما أعلام الوافدين على القاهرة وأزهرها فى ذلك العصر فنستطيع أن نذكر منهم عدة أيضاً . فمنهم العلامة الأندلسى أمية ابن عبد العزيز بن أبى الصلت ، وفد على مصر فى أوائل القرن السادس أيام الأفضل شاهنشاه ، وأقام حيناً بالقاهرة يتصل بمعاهدها وعلمائها وأدبائها ؛ وكان ماهراً فى الرياضة والفلك والموسيقى والعلوم الطبيعية ، وكان أيضاً أديباً شاعراً بديع النثر والنظم ؛ ألف كثيراً من الكتب فى مختلف العلوم ، ووضع رسالة عن علماء مصر وأدبائها فى هذا العصر[2] ، وتوفى سنة ٥٢٨ هـ

(٢) انتهت إلينا قطعة من رسالة ابن أبى الصلت هذه ، وهى ضمن كتاب مخطوط لابن زولاق (كتاب أخبار سيبويه المصرى) محفوظ بدار الكتب المصرية

علامة المقرئ الشهير أبو القاسم الرعيني الشاطبي ، ولد بشاطبة من أعمال الأندلس فى سنة ٥٣٨ هـ ، وبرز فى علوم القرآن ، واشتهر بالأخص بالتضلع فى علم القراءات ، وقدم إلى مصر عقب سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية (سنة ٥٧٢ هـ) يسبقه صيته ، وتصدر للأقراء والدرس بالقاهرة يدرس القرآن وعلوم اللغة ، فهرع إليه الطلاب من كل صوب ، وكان أمام القراءات فى عصره . ووضع فى علم القراءات قصيدته الشهيرة المسماة « حرز الأماني ووجه التهاني » ، وأنشأ بمصر مدرسة حقة للقراءات ؛ وتوفى سنة ٥٩٠ هـ

ومن الشعراء الذين وفدوا على مصر أيام الدولة الفاطمية ، واتصلوا بمعاهدها وأدبائها ، أبو حامد أحمد بن محمد الانطاكى ، المعروف بأبي الرقعمق الشاعر المتفنن الماجن ، وفد على مصر فى أوائل الدولة ومدح المعز لدين الله وولده العزيز والوزير ابن كلس وتوفى سنة ٣٩٩ هـ ؛ وأبو الحسن على بن عبد الواحد البغدادى المعروف بصريع الدلا ، قدم الى مصر أيام الحاكم بأمر الله ومدحه ، وتوفى سنة ٤١٢ هـ وهو صاحب المقصورة الهزلية الشهيرة التى يعارض فيها مقصورة ابن دريد ؛ ومنهم الشاعر الأشهر عمارة اليمنى ، وهو أبو محمد عمارة بن أبي الحسن ، قدم إلى مصر سنة ٥٥٠ هـ فى خلافة الفائز بن الظافر ، وكان فقيهاً أديباً شاعراً فائق النثر والنظم ، شهد سقوط الدولة الفاطمية ورثاها ، واتهم بالتآمر مع آخرين على السلطان صلاح الدين ، وأعدم سنة ٥٦٩ هـ ، ومن آثاره كتاب أخبار اليمن ، وكتاب النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية

ومن الرحل الذين وفدوا على مصر فى ذلك العصر ، الرحالة الفارسى ناصرى خسرو ، قدم اليها سنة ٤٣٩ هـ فى خلافة المستنصر بالله ، وشهد أزهرها ، وأشار اليه خلال وصفه لمدينة القاهرة[1]

* * *

كان للأزهر بلا ريب أثره فى توجيه الحركة الفكرية المصرية فى هذا العصر ، فقد كان منذ بدأت مهمته الجامعية موضع الرعاية الرسمية . كان يشترك فى عقد حلقاته الدراسية أقطاب العلماء من رجال الدولة ، كبنى النعمان قضاة مصر ، والوزير ابن كلس ، وداعى الدعاة ؛ وكانت هذه العناية تسبغ على حلقاته ودروسه أهمية خاصة ؛ بيدأن هذا الأثر كان محدوداً ، خصوصا منذ قيام دار الحكمة ، جامعة الدولة الرسمية ، وتبوئها مقام الزعامة فى توجيه الحركة الفكرية ؛ وقد كان أثر الأزهر أقوى وأشد ظهوراً فى نشر العلوم الدينية ، وتخريج علماء الدين ، لأنه كما قلنا كان موئل الثقافة الدينية ، بينما كانت دار الحكمة موئل الثقافة المدنية ؛ وعلى أى حال فان مؤرخ الآداب العربية لا يسعه الا أن ينوه بما كان للأزهر من أثر فى سير الحركة العلمية والأدبية أيام الدولة الفاطمية ، وان كان هذا الأثر لم يبلغ يومئذ ما بلغه فيما بعد من الأهمية والخطورة

ونلاحظ من جهة أخرى أن أثر الأزهر فى توجيه الحياة العامة فى تلك المرحلة الأولى من حياته لم يكن عظيما . ذلك أن الدولة الفاطمية كانت تحرص على سلطانها السياسى أشد الحرص وتمعن فى التمسك بعصبيتها ، ولا تفسح كبير مجال لنفوذ العلماء ورجال الدين ، ولم تكن عنايتها بنشر دعوتها الدينية الا توطيداً لدعوتها السياسية ، ولم يكن للدعاة من العلماء ورجال الدين من النفوذ المستقل الا ما يتجه نحو هذه الغاية ويخضع لسياسة الدولة العامة . كذلك لم يكن للفقهاء والمشترعين المستقلين كبير أثر فى سير التشريع فى ذلك العصر ، لأن الدولة الفاطمية كانت تهتدى فى صوغ شرائعها بمبادئها المذهبية الخاصة ، ومن ثم فاننا لا نستطيع أن نلمس أثراً يذكر لرجال العلم والدين فى توجيه الحياة والشؤون العامة فى العصر الفاطمى

محمد عبد الله عنان

(١) راجع الترجمة الفرنسية لرحلة ناصرى خسرو

الضوء اللامع

لأهل القرن التاسع للسخاوى

صدر منه ثمانية أجزاء ثمن الجزء اثنا عشر قرشاً

يطلب من مكتبة القدسى بباب الخلق بحارة الجداوى بدرب سعاده بالقاهرة